الفصل الرابع عشر
قد جعلها ربي حقاً

ثمانية وأربعون ساعة، و"جهاد" في زنزانةٍ لا يتعدى حجمها الثلاثة أمتار، طليت جدرانها باللون الأسود، ووضع في نهايتها إبريق ماء للشرب والوضوء وغير ذلك.. لم يأتِ إليها أحدٌ، ولم يستجوبها أحدٌ.. لابد أنهم ينضجونها على نارٍ هادئةٍ كما يقولون.. توضأت ببقايا الماء الموجود في الإبريق، وقبل أن تقف مصلية انفتح الباب في عنفٍ، وقبل أن تلتفت؛ لترى الداخل منه استقرت أحد الرصاصات الغادرة في كتفها الأيسر، وصرخت من هول الصدمة، لقد انطلقت رصاصته المفاجأة على حين غِرةٍ منها، وسقطت على الأرض فانكب عليها محدثاً إياها بصوتٍ جامدٍ كأنه الرعد:

-تحدثي وأخبريني بكل شيءٍ وإلا دفنتكِ هنا.. حدثيني عن الخطاب الذي وصلكِ قبل كل شيءٍ وإلا وضعتكِ في الغرفة المجاورة.

ولم تستوعب جهاد ما الذي يحدث في الغرفة المجاورة، ونظرت تجاهها في خوفٍ، وصمت هو؛ لمنحها فرصة سماع الصراخ الآتي من هناك.. وخارت قواها، وشعرت أنها تفقد القدرة على المقاومة وهتفت بصوتٍ واهنٍ :

-أنا بحاجة للطبيب.

-اعترفي أولا

-لقد فقدتُ الكثير من الدماء.. أنا بحاجةٍ ماسةٍ للطبيب.. سأموتُ إن لم تفعل.

-ولن أفعل.. رصاصة في الكتف لن تودي بحياتكِ.. غاية ما هنالك سيشلّ ذراعكِ، على افتراض أسوأ الأمور.

وبصقت "جهاد" في وجهه فجنّ جنونه، وأمسكها من عقصة شعرها؛ ليجرجرها بين جدران الزنزانة الضيقة، وارتفع صوت صراخها، ويبدو أن ذلك أزعجه، فما كان منه إلا أن أطلق رصاصة أخرى في الكتف الثاني، وشعرت بسحابةٍ من السواد تطبق على جفنيها، ولم تعد تحسّ بشيءٍ، وسمع "إيلان" صوت تصفيقِ حارٍ آتٍ من الخلف، ولم يكن المصفق له سوى "ألبرت".

****

فتحت "جهاد" عينيها ببطءٍ؛ لترى وجهاً ملائكياً يبتسم لها، ويقول في هدوءٍ:

-حمداً لله على سلامتكِ.

وتمتمت "جهاد" ببعض الكلمات، فعاد الصوت الملائكي يقول:

-أحاول إفاقتكِ منذ ساعةٍ ونصف.. وحاولتُ قدر استطاعتي إيقاف النزف، ولأنني لم أستطع أن أخرج الرصاصتين فاكتفيتُ بتضميد جرحكِ حتى لا يتلوث، وحتى لا تفقدين الكثير من الدماء.

ولم تهتم "جهاد" بكل هذه التفاصيل وجعها كان أكبر.. لم يمنحها الوجع الفرصة؛ لتستمع لتقريرٍ عن حالتها، وشعرت بأن هناك ألما مميتا في كتفيها، وأن الوجع أكبر من أن يحتمل فتعكزت على الحائط، واستندت على مقبض الباب، ووجهت صوتها عبر فتحت باب الزنزانة، وظلت تصرخ بهستريا " اقتلوني " يوجد أسيرة هنا تتمنى

الموت، وبكل ما أوتيت من قوة ظلت تركل الباب بعنفٍ وهي تكرر نداءاتها المستغيثة بكل ما أوتيت من قوةٍ.

اقتربت منها رفيقتها بالزنزانة؛ لمحاولة تهدئتها وهي تهتفُ:

-اهدئي.. حتى لا تفقدين الوعي مرةً أخرى.

وبكل ما أوتيت من ذل هتفت "جهاد":

-ليتني أفقد حياتي كلها.. الوجع لا يحتمل.. هناك نيران تشتعل في كتفيْ، وعادت للصراخ مرة أخرى.

وفتح الباب ودخل "إيلان" يتبعه "ألبرت" وفي يده أسيرٌ ثالث قاموا بتغطية وجهه بوشاحٍ أسود.. وتحدثت "حياة" بعنفٍ موجهة كلامها "لإيلان" وهي تهتفُ:

-إنها تموت.

ولم ينطق "إيلان" ودون أن يرد قام بتوثيق يد كل منهم في حلقاتٍ موجودةٍ بجدران الزنزانة، ونظر إلى "ألبرت" مبتسماً في ظفرٍ وهو يهتفُ:

-هيا بنا.

وعادت "جهاد" للصراخ مجدداً، وقال صاحب الوشاح الأسود:

-صاحب هذا الصوتِ أعرفه جيداً.. لكنني لا أستطيع أن أميزه.. جلسات الكهرباء لا زالت تعبث بعقلي.

وردت "حياة":

-إنها فتاة.

وبهت صاحب الوشاح الأسود قائلاً:

-لابد أنها "جهاد".

وحاول أن يتحدث بصوتٍ عالٍ ؛ ليفوق صوته صراخها وهتف:

-"جهاد".. اهدئي أنا هنا.. ليتني بدلاً منكِ لا تقلقي ستخرجين قريباً.

وتحدثت "جهاد" ببكاءٍ واضحٍ:

-"عبدالرحمن".. إنني أموت.. ليتنا تبادلنا الأدوار، وأخبرتك أنا وصيتي!

-لا تقولي ذلك.. مَن هم مثلكِ لابد أن يموتوا في ساحة معركةٍ، وليس كالجرذان في زنزانةٍ قذرةٍ كهذه.

وبتر عبارته فجأة صوت الأسيرة الأخرى وهي تهفُ:

-أنت "عبدالرحمن".. أليس كذلك؟

وذهل "عبدالرحمن" وآثر الصمت.. وأعادت "حياة" عبارتها مرةً أخرى:

-ألا تذكرني؟ إنني أنا السيدة "حياة حمدي".

والتفتت إليها "جهاد" وحاولت أن تمعن النظر في وجهها لكن طاقتها نفذت ودماؤها أوشكت على الانتهاء، وخرّت فاقدة للوعي للمرةِ الثانيةِ.

****

التف "جان" و"ألبرت" و"إيلان" حول المنضدة، وجلس "ألبرت" قبالة "إيلان" وهو يهتف وإبتسامة هادئة تلوح على ثغره:

-لا أستطيعُ أن أصف لك مدى الهدوء الذي بعثته في نفسي.

وتساءل "إيلان" في عدمِ فهمٍ:

-أنا؟

-نعم.

-وكيف ذلك؟!

-الرصاصتان اللتان أطلقتهما في جسدي شبيهتك هذه أراحاني كثيراً.

-لم أفهم ماذا تقصد؟

تنهد "ألبرت" ولم ينطق، وعاود "إيلان" سؤاله:

-ماذا هناك يا "ألبرت"؟ لمَ تتعجب من أمرٍ كهذا؟ بل ما العجبُ في أن أجبر أسيرة اقتحمت مكتبي في غفلةٍ منا على الاعتراف؟

-لا شيء.. لا تهتم.

-بل أنا مهتمٌ.. وقبل أن نبدأ في الحديث عن العمل لابد أن أخبرك أنني قد وافقتُ على زواجك من "حياة" وأرى أن زواجك منها إن تم كما دبرتم له سيكون نقطةِ نصرٍ فارقةٍ في تاريخ الموساد.

وهب "ألبرت" واقفاً وهو يغمر "إيلان" في سعادةٍ قائلاً:

-لا أصدق.. أنا لا أصدق.

-لا تصدق ماذا.. أكل هذه السعادة الغامرة التي تواثبت على وجهك؛ لأنني سمحتُ لك بالزواج من هذه.. أعتقد أن هناك ما تخفيه عني.

-في الحقيقة نعم.. ولكني سأقوله لك حالاً فلم يعد هناك ما يبعث على الشك.

ردد "إيلان" في عدمِ فهمٍ:

-الشك!! تشك فيَّ أنا؟!

-سامحني.. هذه هي طبيعة عملنا.. تصرفاتك في المرحلة الأخيرة أوحت للجميع بذلك، ولقد طُلب مني مراقبتك واقتفاء أثرك.

-أنت تمزح أليس كذلك؟

-بل هي الحقيقة الكاملة.. ولقد رُفع ملفٌ بذلك إلى المدير.. ولقد كلفني هو بالبتّ في هذا الأمر.

وحاول "جان" أن يتدخل لكن "ألبرت" أشار إليه بأن يصمت ثم واصل قائلاً:

-لكن موافقتك على الزواج من "حياة" والشروع في قتل شبيهتك والتي تحمل نفس بطاقتك المعدنية ووجودها في مكتبك من قبل، ومع ذلك عندما فتحتُ أنا الباب وجدتك تتحدث معها بهدوءٍ لم أعهده فيك، كل ذلك بعث في قلبي الشك، فوضعتُ أمر صداقتنا جانباً، وأعليتُ عليها أمر الوطن فكما تعلم الوطن أهم من أي أحدٍ حتى لو كان "إيلان إيرائيل" نفسه.

-وأنا بدوري أحييك على هذا يا "ألبرت".. لقد تعاملت مع الأمر تعاملاً يستحق أن يدرس لطلاب المدارس. قال إيلان.

عاد "إيلان" للسيطرة على المناقشة، وكسب جميع الأطراف في صفه.. وتحدث "جان" ساخطاً:

-لابد أن نضع حداً للأمر.

-أي أمرٍ ؟

-الأمر المؤسف الذي نحن فيه.

وتساءل "ألبرت" بعصبيةٍ:

-تكلم بوضوح يا "جان" ماذا تقصد؟

-منذ متى ونحن نخبر مَن نشك في أمره عن رغبتنا في التحقيق معه.. وقبل أن نتأكد من براءته.. منذ متى ونحن نكشف أوراقنا بهذه السهولة إلى ضابطٍ اعتقدنا أنه مذنبٌ، ووقفت أفعاله كلها ضده؛ لتثبت تورطه في جريمةٍ ما.

قال "إيلان" ساخراً:

-كما تعلم يا "ألبرت" وبغير جدال أنا محاطٌ بمجموعة من الأفاقين والحاقدين الذين يحسدونني على ما قمتُ به من أجل هذا الوطن، ويحز في أنفسهم أن شاباً صغيراً سبقهم بمراحل فدفع الحقد كل واحدٍ فيهم أن يسلط لسانه عليَّ بما يتفق وذهنه من شائعاتٍ مغرضةٍ؛ لمحاولة إقصائي عن القمةِ حتى تتسع لهم طريق الصعود إليها.

وتحدث "ألبرت" قائلاً:

-أرجوكما.. كفا عن هذا العبث.. الأمر لا يحتمل، أولئك الفلسطينيون الكلاب قد عرفوا طريق المقاومة، وقد شدّ بعضهم أزر بعض، وتصلب عودهم، وكثرت عملياتهم، وكلما حاولنا القضاء على فرق المقاومة التي تفشت أخيراً ثارت ضدنا أفراد المجتمع الدولي.. والمسألة تتعقد شيئاً فشيئاً.

-لكنك تعلم أن العقد لا يستعصى حلها على "إيلان إيرائيل".. لذلك فقد فكرتُ في خطةٍ عبقريةٍ نستطيع بها التخلص من أكبر ثلاث مراكز مقاومة منذ أن عرف

الفلسطينيون طريق الجهاد في الفترة الأخيرة.. سنفعل ذلك دون أن تثور ضدنا دولة واحدة، ودون أن تهدد الدول العربية بإيقاف تصدير النفط إلينا.

وراح "إيلان" يشرح خطته العبقرية؛ لتطهير المنطقة من رجال المقاومة؛ ولتأديب الأهالي حتى يمتنعوا عن إرسال أبنائهم إلى مثل هذه المعسكرات.

****

-أرجوكِ يا سيدة "حياة" حاولي إفاقتها إنني أحتاجها في أمرٍ مهمٍ.

-ولكنني مقيدة كما تعلم.. ثم أردفن بعد برهة:

-ثمة إبريقٌ به بقايا ماء سأحاول أن أركله بقدمي فلعل المياه تنسكب على وجهها.. إن يديها لا زالت معلقة في الحلقة، لكن جسدها سقط بشكلٍ أفقي، فتعلق على الحائط دون أن يصل إلى الأرض.

وحاولت "حياة" أن تركل الإبريق لكنه كان بعيداً عن قدميها، وكلما حاولت الاقتراب منه كلما شعرت أن الحلقة المثبتة بالجدار ستقتلع يدها، وبينما هي تحاول فتح باب الغرفة، ودخل منه رجلان.. أحدهما يرتدي معطفاً أبيضَ وقال الرجل الذي يتبعه:

-ها هو الطبيب.

****

استخرج الطبيب الرصاصتين، وبعد أربع ساعاتٍ استفاقت "جهاد" وتحدثت بصوتٍ واهنٍ:

-"عبدالرحمن".. لا تقلق فأنا بخير.

والتفت نحو الأسيرة الأخرى، وهي تقول:

-أشعر أنني أعرفكِ.. كما أنني أحفظ اسمكِ عن ظهر قلبٍ وكأنه اسمي أنا.. فمَن أنتِ؟

وقبل أن ترد "حياة" هتف "عبدالرحمن" في سرعةٍ:

-"جهاد".. دعكِ من هذا العبث الآن.. لدي شيءٌ مهمٌ للغاية لابد أن أخبركِ إياه.. أنصتي إليَّ جيداً.. في جيب سترتي الأيمن بعض الأوراق والوثائق الهامة لابد أن تأخذيها وتخفينها في ملابسكِ.. استندي على الحائط، وحاولي أن تأخذيها في أقرب وقتٍ.

-وما فائدة ذلك؟

-ستخرجين من هنا بعد دقائق.

-أنت تمزح أليس كذلك؟!

-كلا.. أنا أتحدث بجديةٍ بالغةٍ.. كل هذه الوثائق يتحتمُ عليكِ إيصالها للقائد "ياسر الصاوي" بأي شكلٍ وبأي طريقةٍ، وهدأ صوته قليلاً ثم هتف، وهو يتبسم:

-علمتُ أن أيامي الجميلة في انتظاركِ، وعلمتُ أنكِ تستحقين أن يعوضكِ الله عن كل ما عانيتيه في طفولتكِ وشبابكِ.

هتفت "جهاد" في عدمِ فهمٍ:

-هل علمت شيئاً عن طفولتي وشبابي؟

-أعلم كل شيءٍ.. ولا يتسع المقام لذكر هذه الأشياء الآن.. هي انهضي وخذي هذه الوثائق.

وبينما هي تفعل سألته "جهاد":

-مِن أين لك بكل هذه الأوراق؟ إنها مهمة للغاية.

-حاولتُ أن أفعل شيئاً ذا قيمةٍ قبل أن أموت.. على أية حالٍ، ليس هذا وقت شرحٍ أو استفسارٍ ثم أتبع ضاحكاً:

-يا "جيسي".

وعقدت "جهاد" حاجبيها، وهي تهتف في عدمِ فهمٍ:

-"جيسي"!!!

-نعم.. "جيسي" الفتاة الصغيرة التي تركت مصر قديماً هي وأمها وأخاها الوحيد "يوسف".. هل اقتنعتِ أنني متأكدٌ أن أيامكِ الطيبة قادمة؟

قاطعتهما "حياة":

-"عبدالرحمن".. أعد ما قلته.

وفي نفس اللحظة، لمع في ذهن "جهاد" شيءٌ ما.. شيءٌ قديمٌ محببٌ إليها.. لمع في ذهنها صورة لجارةٍ طيبةٍ تمنح أمها مصحفاً؛ ليحفظها هي وأبناؤها، وعادت بها الذكريات إلى الوراء كتصوير فلاش باك، عادت بها إلى قلب الإسكندرية حيث الترام

الأزرق وصديقة ثالثة تدور حولها هي وأخاها.. حيث المسجد الكبير وحلقات تحفيظ القرآن التي يمتنع عليهم الدخول إليها!

وهتفت بصوتٍ مبحوحٍ لم يستفق من وقع المفاجأة:

-"حياة حمدي" ابنة الخالة "صفاء".. أليس كذلك؟

وهتفت "حياة" في شبه صراخٍ:

-هل فعلاً التقينا مجدداً أم أنني أحلم؟

وفتح الباب، ودخل "إيلان" يتبعه "ألبرت" و"جان" وهتف "إيلان" بصوتٍ أجش:

-تذكرين يا "حياة" أنني وعدتكِ بمفاجأةٍ ما.. أليس كذلك؟

ولم ترد "حياة" فتقدم "إيلان" إلى "عبدالرحمن" ونزع الغطاء الأسود الذي يغطي وجهه ثم هتف:

-تعرفينه جيداً.. أليس كذلك؟

وسالت دمعةٌ كبيرةٌ من عين "عبدالرحمن".. واستدرك "إيلان" موجهاً كلامه إلى "حياة":

-هل تعرفين مَن ساعدنا في أسركِ والتنكيل بكِ؟

وصمتت ولم تجب.. فأتبع "إيلان":

-إنه هو.. هذا الخائن وأشار إلى "عبدالرحمن".

وهتف "عبدالرحمن" بصوتٍ يقطر أسى:

-سامحيني.

ووجمت "حياة".. وأعاد "عبدالرحمن":

-أرجوكِ سامحيني.

وقبل أن يتم جملته استقرت ثلاث رصاصات متتالية أطلقها "إيلان" في جسده، وبدون شفقة أتبعها قائلاً:

-الآن..انتهت مهمتك.

وانحنى جسد "عبدالرحمن" وصرخت "حياة".. وتقدمت "جهاد" إليه، وقالت بصوتٍ يخنقه البكاء:

-هل سترحل سريعاً هكذا؟

-وددتُ البقاء حتى أوصلكِ إلى بر الأمان.. لكن الله لم يقدر لي ذلك.

ومر شريط ذكرياتهما أمام عينيه.. وهتف "عبدالرحمن" بصوتٍ متقطع:

-سامحيني.. تركتكِ في منتصف الطريق.

وهتفت "حياة":

-استرح يا "عبدالرحمن" لا تجهد نفسك في الحديث.

-لاتقلقي.. سأستريح للأبد.. لكن هلاّ سامحتني؟

-سامحتك.. سامحتك حتى لو كنتَ سبباً في موتي.

وهتف "عبدالرحمن":

-الحمد لله.

تمايل جسده واقعاً على الأرض لكن الحلقة منعته من السقوط تماماً، فأخذته "جهاد" بين ذراعيها ونظر إليها "عبدالرحمن" نظرة عتابٍ ثم هتف:

-عديني أن تتوقفي عن البكاءِ أيتها الفارسة الجديدة.

فأجهشت "جهاد" بالبكاء أكثر.

وصمت "عبدالرحمن" برهة يحاول أن يتمالك قواه ثم قال:

-لم يمنحني القدر الفرصة؛ لأحقق ما تمنيتُ تحقيقه.

وقالت "جهاد":

-أنت بخير.. وسيأتونك بالطبيب الآن كما فعلوا معي.

-لم يعد في العمر متسع.. لكن عديني أنكِ ستذهبين إلى أمي وتخبرينها أن السيدة قد سامحتني، وأنني رحلتُ شهيداً.. وأن حياتي لم تذهب سدىً، وأنني لم أجدُ أعز من عمري أدفعه لها كي ترضى عني.

وصمت برهة ثم أغمض عينيه وضغط على ضروسه؛ ليكتم صيحة ألمٍ كادت أن تفلت من بينهما ثم أتبع:

-هناك مظروفٌ تحت وسادتي بالمعسكر به الكثير من المال أعطيه لليلى وأخبريها أنني لطالما حلمتُ أن أراها عروساً.. ولكم تمنيتُ أن أزفها إلى زوجها.. وأنني كنتُ أموتُ في اليوم ألف مرةٍ؛ لأنني عجزتُ أن أحقق لها ذلك.. أعطيها المال، وأخبريها أنني أطلب منها أن تسمي أول ولدٍ لها "عبدالرحمن".

وصمت لحظة ثم أتبع:

-حتى لا ينقطع ذكري من هذا العالم.. وإلى جانب المظروف ستجدين خاتم خطبة لطالما حلمتُ أن أضعه في يد "آسيا" أخبريها أنني أحببتها أكثر من أي شيءٍ أحببته في حياتي.. عديني أنكِ ستذهبين إلى بيتنا وتفعلين كل ما طلبته منكِ.

-سأفعل يا "عبدالرحمن".. اهدأ حتى لا يتفاقم الألم.

-لقد ذهب الألم وذهب العمر معه.

ونظر إلى "حياة" وهو يكرر:

-سامحتيني.. أليس كذلك؟

وهتفت "حياة" من خلف دموعها:

-اشفع لي عند ربك.. ثم رددت بصوتٍ يخنقه البكاء:

-" ومن يعمل سوءً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً "

وابتسم "عبدالرحمن"، وألقى نظرة وداعٍ على جهاد مردداً

-"هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً"!

وشاعت السكينة في قسماته، وهدأت ملامح وجهه المتشنجة، وفاضت روحه إلى بارئها.. وانفجرت "حياة" و"جهاد" باكيتين.

****

تحدث "ياسر" بعنفٍ قائلاً:

-لابد أن في الأمر خطباً ما.. عقلي سينفجر من التفكير، وهتفت "جهاد" بهدوءٍ ممزوجٍ بأسى:

-وأنا كذلك.. لابد أن اليهود يدبرون لشيءٍ ما.. أنا لم أستسغ خروجي من الموساد بهذا الشكل المريب، والغريب جداً بعد أن ضُبطت في غرفةِ أهم ضباطه، ولا أكاد أفهمُ كيف اعترف "عبدالرحمن" أنه هو مَن كتب الخطاب الذي وجدناه في غرفتي؟ وأنه هو مَن احتال على الضابط؛ ليسرق بطاقته المعدنية؟ هناك العديد من الحلقات المفقودة والتي لا أستطيع فهمها حتى الآن وتساءل "ياسر":

-ألم ينطق "عبدالرحمن" شيئاً آخر قبل استشهاده.

-الذي حكيته لك فقط.

-ماذا كان يقصد بقوله " أن أياماً جميلة تنتظركِ "، ولماذا لقبكِ باسمٍ آخر ليس لكِ.

وقالت "جهاد" متنهدة:

-هناك شيءٌ يخصني أخفيته عن الجميع، وقد آن الأوان أن أعترف لك به لكن المهم الآن هل الأخبار التي تداولتها صحف الصباح حقيقة أم مجرد تمويهٍ لكل العرب؟ هل فعلاً ستتزوج السيدة "حياة" من هذا الأحمق الذي يدعى "ألبرت"؟ إنها كارثة، أنا لا أعلمُ كيف سنقدر على مواجهة كل هذه الكوارث؟

-الصحافة تقول إن الزفاف سيتم غداً ونحن لم نرتب أمورنا بعد.

ودخل أحد الجنود، ووضع أمام ياسر مظروفٌ مغلق، وهو يهتفُ:

-القائد الأعلى أرسل هذا الخطاب يا سيدي.. لكنه أرسله بطريق آخر غير الطريق المتعارف عليه.

وفتح "ياسر" المظروف ولم تمضِ بضع دقائق حتى هتف :

-القيادة أرسلت خطة ما؛ لإنقاذ "حياة" ولكنني أراها خطة بدائية جداً، إنه يقول أنه سيقوم بتهريبها فجراً في الخامسة صباحاً بعد أن يحلق شعرها ويلبسها زيّاً رجالياً، وإن كان الأمر كذلك فكيف سيدخلون الموساد مرةً أخرى في ظل هذه الرقابة المشددة؟ تعتقدين سننجح في إنقاذها من براثن هذه المصيبة التي أطبقت علينا؟

ورفعت "جهاد" بصرها إلى السماء، وكأنها تستنجد بها، وبعدما انتهى "ياسر" من شرح الخطة والاتفاق على ما سيقومان به في الغد أبلغته "جهاد" أنها ولا بد أن تبادر بزيارة عاجلةٍ وسريعةٍ لأهل "عبدالرحمن".

-كنتُ سآمركِ بفعل ذلك.. تصحبكِ السلامة.. لا تغيبي كثيراً.

****

الطريق إلى عكا، والفجر قد أوشك أن يؤذن له، وحملت الرياح نسمةً باردةً رطبةً فضمت "جهاد" معطفها إلى صدرها.. وبعد برهةٍ، ظهرت القمر بأنواره الفضية من وراء بعض السحب التي أخفت أنواره لمدةٍ ليست بالقصيرة.. وظلت السيارة تنهب الأرض إلى أن وصلت إلى الحي المقصود.. وتحاملت على قدميها رغم آلام كتفيها، وحاولت أن تهبط من السيارة بحرصٍ ، وبينما هي تفعل ندت آهة من شفتيها فهتف السائق:

-يمكنكِ أن تظلي هنا ريثما أذهب أنا إليهم، وأخبرهم ما تريدين يا سيدتي.

ونظرت "جهاد" إلى السائق نظرة لومٍ وهتفت:

-إنه "عبدالرحمن" يا "عمر".. ألا يستحق أن نكرمه في أهله؟

-أعتذر ما قصدتُ إلا راحتكِ.

وقبيل فجر ذلك اليوم، كانت قوات الاحتلال قد أفرجت عن بعض المعتقلين، والذين كانت منهم "ليلى" توأم "عبدالرحمن" وأخته الوحيدة، والتي عادت إلى الحي للمرة الأولى بعد مرور أكثر من تسعة أشهرٍ، وطرقت الباب ولم يفتح لها سوى "آسيا" والتي بمجرد أن رأتها حتى علت زغاريدها؛ لتجوب كل أركان المنطقة.. فخرجت والدة "عبدالرحمن" من الداخل وهي تهتفُ:

-ماذا هناك يا آسيا؟ لمَ كل هذه الجلبة؟

ولم تكد المرة تتمّ عبارتها حتى هتفت:

-إني لأجدُ ريح "ليلى".

وارتمت "ليلى" في أحضان أمها وهي تهتف:

-وقد عدتُ ثانيةً يا أمي.. لم أصدق أنني سآراكِ مرةً أخرى.

وتوافد عليهم أهل الحي فور سماعهم لزغاريد آسيا، وأصبح البيتُ كأنه فجر يوم عيد.. جلست النساء للترحيب بليلى، وذهب بعض الرجال لصلاة الفجر.. الأم مستغرقة في الحمد والتسبيح وقد ملأت الطمأنينة قلبها، و"آسيا" منهمكة في توزيع الشربات على أهل الحي الذين جاؤوا؛ للاحتفال بخروج "ليلى".

وهبطت "جهاد" من السيارة، وسارت في نفس الشارع الذي يسكنه "عبدالرحمن" ورغم الظلام الذي ينشر أركانه على الحي، شعرت "جهاد" أنها تزور مكاناً مألوفاً، ولم تشعر أن المكان غريبٌ عليها فلقد عاش هنا "عبدالرحمن" معظم أيام حياته ولكنها أحسّت أن عيون المتوافدين على المسجد الذي يقبع في أول الشارع يرمقونها في حذرٍ شديدٍ، ومن الواضح أنهم توقعوا أنها غريبةٌ عن المكان.. فلقد أحست أن أعين المارّة تحاول أن تطلع إليها مستفسرةً عمّا تريد فتاة ترتدي زيّاً عسكرياً يحمل شعار المقاومة في حيّهم البسيط.

وعبرت "جهاد" بعض المنازل الموجودة على جانبي الطريق حتى وصلت إلى البيت المقصود والذي يحمل رقم ١٣ فوجدت أن الفرح ينير ظلام الليل وأمامه أناسٌ كثيرون وبه حركةٌ غير طبيعية، وبعد وقتٍ ليس بالقصير علمت أن "ليلى: قد خرجت من المعتقل منذ سويعاتٍ قليلةٍ.. ولم تدرِ هل تعود من حيث جاءت فلا تخبرهم بنبأ استشهاد "عبدالرحمن" حتى لا تكسر فرحتهم بعودة "ليلى" أم أنه من الأفضل أن تتقدم، وتجعل فرحة الأم فرحتيْن واحدة؛ لخروج "ليلى" والأخرى؛ لاستشهاد "عبدالرحمن"؟

وفي النهاية، قررت إكمال الرحلة، واخترقت زحام الواقفين، واستأذنت أحدهم في الدخول إلى الخالة أم عبدالرحمن فنظر لها الشاب في شكٍ قائلاً:

-اسمها الخالة أم ليلى!!

وهزت "جهاد" رأسها موافقةً على كلامها في أسى، ودموعٌ كثيرةٌ تكاد تطفر من عينيها.

ودخلت "جهاد" إلى حجرةٍ فسيحةٍ أحيطت بالآرائك ووُضعت في جانب منها منضدة، رصّت عليها الصحاف والأطعمة وبعض أكوابٍ من الشربات.. وجلست "جهاد" مع المهنئين على الأرائك ينصتون إلى صوت تواشيح الفجر الذي يعلو من راديو وُضع في أحد أركان الغرفة.

سلمت الأم تتبعها "ليلى" على جميع الموجودين.. وعادت الأم للجلوس بجانب "جهاد"، وبعد برهةٍ قصيرةٍ دخلت فتاة جميلة تحملُ أكواباً من العصير وزعتها على الموجودين، وتطلعت إليها "جهاد" فإذا هي فتاة رائعة الجمال، غضت الشباب، نبيلة المنظر.. وتبادلت الأمّ عبارات الترحيب مع "جهاد" ثم قالت:

-اعذريني يا ابنتي.. لم أعرفكِ.. لقد رحل الأحباب ورحل معهم البصر وكأنه لا يوجد في هذه الدنيا ما يستحق أن يُرى بعدهم.

وردت "جهاد":

-لكنكِ بالفعل لا تعرفينني.. هذه أول مرةٍ آتي لزيارتكم.. ولكنها لن تكون الأخيرة بإذن الله.

-تشرفتُ بكِ يا ابنتي.. لابد أنكِ أتيتِ للمباركة على خروج "ليلى".

-نعم.. أتيتُ للمباركة لكن على شيءٍ آخر لا يخصّ ليلى.

وتساءلت الأم في ريبةٍ:

-ما هو؟

لم تعرف "جهاد" كيف تبدأها بالحديث؟ ورغماً عنها امتلأت عينيها بالدموع.. فزاد الشك في نظرات الأم، والتفت الجالسون إلى الحديث الدائر بين الأم وجهاد.

وتقدمت إليها "ليلى" وهي تهتفُ:

-كيف نستطيع مساعدتكِ؟!

وقالت "جهاد" بصوتٍ مختنقٍ:

-لقد أتيتُ بشأن "عبدالرحمن".

وأحسّت الأم أن هناك خنجرٌ يغرس في قلبها، وتساءلت "ليلى" في جزعٍ:

-ماذا به؟

فصمتت "جهاد".

وعاودت "ليلى" سؤالها في لهفةٍ:

-أين هو.. ماذا حدث له؟

وأتت "آسيا" من المطبخ؛ لترى لمَ كل هذه الضوضاء؟

وتساءلت الأم بصوتٍ متهدجٍ:

-هل رحل "عبدالرحمن"؟

وأطرقت "جهاد" ولم تجب.

وأعادت الأم:

-رحل شهيداً فنزغرد أم رحل خائناً فنأخذ العزاء فيه؟!

وقالت "جهاد" بصوتٍ يخنقه البكاء:

-بل زغريدي يا خالتي.

وأطلقت الأم زفرةً حارةً وهتفت من قلبها:

-امنح قلبي الصبر يا رب..

وعلت زغرودتها تجوب أركان الغرفة، وانطلقت خلفها زغرودة "ليلى".. وهتفت "آسيا" في ذهول:

-رحل سريعاً هكذا.. ألم يخبرني أنه سيكافح من أجل تحرير الأرض.

وقالت "جهاد":

-حدثني كثيراً عنكِ وأوصاني أن أعطيكِ هذا الخاتم، وأن أخبركِ أنه كثيراً ما تمنى أن يعود إليكِ ودائماً كان يحلمُ بكِ زوجةً له.. لكن القدر آثر إلا وجعيته.

واستدارت "جهاد" إلى الأم، ولقد أوصاني أن أقول لكِ إنه لم يجد أعز من روحه؛ ليدفعها ثمناً لرضاكِ عنه.

وتقدمت إلى "ليلى" وهي تهتفُ:

-لقد أرسل لكِ هذا المظروف حتى تستطيعين أن تجهزي نفسكِ بما فيه ويستحلفكِ أن تسمي أول طفلٍ لكِ "عبدالرحمن "حتى لا تنسونه فيضيع ذكره في هذا العالم.

وصمتت "ليلى" كأنما تعالجُ غصةً تعتلج في صدرها ثم لم تلبث أن انفجرت باكيةً فهيج بكاؤها بكاء جميع الموجودين.